الفصل الخامس

لَستُ بالخِبِّ، ولا الخِبُّ يَخدعنِى

في مستوى فطرته، وإيمانه، ومسئوليته، كان ذكاؤه وكانت فطنته.

ولقد لخصت أم المؤمنين «عائشة» رضي الله عنها حِذقه الفائق فقالت:

«كان والله أَحْوَذِيًّا، نسيج وحده، قد أعدَّ للأمور أقْرانها»..

ولقد أفاء الله عليه الكثير الغدَق من الفهم والحكمة ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا (٢٦٩)﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٩]

و«عمر» أهل لفضل الله وعطائه وخيره، فليس في حياته كلها شيء له. إنها كلها مُكرَّسة لله. منذورة لطاعته وخدمة خلقه.

وذكاؤه سناد للحق، لا للباطل.

وهو ينبع من مسئوليته، ويعمل وَفقها.

وهو ذكاء الفطرة السويّة، والتجربة اليقظى، ومن ثَم فهو لا يعرف المراوغة، ولا المُماراة.. إنما يتحرَّى الحق، وينفُذ إلى اللُّباب المستتِرَ في مثل لمح البصر أو هو أقرب!!

وحظه من فقه الإسلام خاصّة، حظ عظيم جدّ عظيم،

يقول عبد الله بن مسعود:

«كان عمر أعلمنا بكتاب الله. وأفقهنا فى دين الله».

وكان أصحابه يتحدثون بأنه ذهبَ وحده بتسعة أعشار العلم.

والحـق أن توقّد ذكائـه، وخصوبة قريحتـه لا يَخفيان فى أى تصرف من تصرفاته، أو كلمة من كلماته..

وكما لا يزهو «عمر» بسـلطانه، فهو لا يزهـو بعبقريته.. تلك العبقرية التى لو شاء أن يخوض بها معارك الذكاء لربحها جميعًا، غيـر أنه لم يُعْطَ نعمة الذكاء كما يـرى، إلا ليبصر الحق فى ضياء هذا الذكاء، وليتجنب به أحَابِيل المكر السـيئ التى ينشرها دائمًا أعداء الوضوح وخصوم الحق..

كثيرًا ما كان يقول ﷺ:

«لستُ بالخِبِّ ، ولا الخِبُّ يخدعنى»!..

وهى عبارة تصور طبيعة نبوغه وذكائه.

فهو ليس ذكاء عُدوانيًّا.. ولا ذكاء مُراوغة وخَتْل..

ليس ذكاء هجوم . بل... ولا ذكاء مقاومة..

إنمـا هو ذكاء تَفَـوُّق، يتفجر من شـخصية متفوقة، ويعمل فى خدمة مبادئ متفوقة..

هو إذن ليس ذكاء مَعارك، بل ذكاء بُطولات...

وليس ذكاءً مدرسيًّا، بل ذكاء خلاّقًا مُبدعًا..

وهـذا أيضًا من آيات هذا العقل الذى يؤمن بالنَّص ويُذعن للأثر. ثم هو مع هذا صوَّال جوَّال. يستشـرف الغيُوب ويكاد أحيانًا يسبق الوحى، مما جعل رسول الله يقول مشيدًا بهذه الفطنة الخارقة:

«إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه»..

* * *

يقول للرسول يومًا:

يا رسول الله. أليس هذا مقام إبراهيم أبينا؟

يقول الرسول: نعم.

فيقول عمر: فلو اتخذتَ منه مُصَلّى.

فمـا هى إلا أيام حتى يتنزل الوحى بالآية الكريمة: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [سورة البقرة: الآية ١٢٥].

ومثـل هذه الواقعة كثير، حيث كانت تنبثق من عقله المضىء، وبصيرته الذكية فكرة، أو أمنية، فيتنزل بها الوحى بعد قليل.

من أجل هذا قال الرسول فيه:

«لو كان بعدى مُحَدَّثون، لكان عمر»..

ومن أجل هذا جعله الرسـول مصدرًا من مصادر التشـريع حين قال لأصحابه:

«إنـى لا أدرى مـا مقامى فيكم، فاقتـدوا باللَّذَيْـن من بعدى، أبى بكر وعمر»..

وذكاء «عمر» عميم واسع، ونظرته الحصيفة تُجَلِّى كل غامض، وتنفذ إلى كل غَوْر بعيد..

ورأيُه فى شىء يسير، كرأيه فى أمر خطير - كلماتٌ وجيزة، وأحكام مستوعِبة..

وله فقه عظيم بطبائع الناس... كفقهه العظيم بأحداث الدنيا وأسرار الحياة!!

* * *

كان يقول: «الناس بزمانهم؛ أشبهُ منهم بآبائهم».

ويقول: «ما من أحد عنده نعمة، إلا وجدت لها حاسدًا.. ولو كان المرء أقومَ من القدَح. لوجدتَ له غامزًا»!!

أحكام وجيزة، لكنها عميمة، تتركز فيها حكمة «عمر» وعبقريته، وخبرته العميقة بنفس الإنسان.

وإنه ليضع الناس فى ميزان ذكى قويم فيقول:

«أحبكم إلينا قبل أن نراكم أحسنكم سيرة، فإذا تكلمتم فأبينكم منطقًا، فإذا اختبرناكم فأحسنكم فعلا».

والمظاهر العابرة، لا تكفى عنده لتكوين أحكام عن الآخرين.

يسمع واحدًا يُطرى آخر ويمتدحه قائلا، إنه رجلُ صِدق.

فيسأله عمر: هل سافرت معه يومًا؟

يقول الرجل: لا

– هل كانت بينكما خصومة يومًا؟

– لا..

– هل ائتمنته يومًا على شيء؟

– لا..

فيقول عمر: «إذن لا علم لك به. لعلك رأيته يرفع رأسه في المسجد ويخفضه»!!

هذا إمام من أئمة التقى والورع والهدى، ثم لا يرى رفع الرأس وخفضه في المسجد كافيًا للثقة بمن يفعل هذا، لا تهوينًا لشأن العبادة، ولكن إحاطةً بأسرار النفس الإنسانية وحسنَ فهم لتياراتها الخافية..

إن ذكاء «عمر» لا يأتي الأمور من بعض زواياها، إنما يكشفها جميعًا، ويستوعبها حتى آخر نماذجها واحتمالاتها..

فهو في معرفته بالناس لا يكتفي بتمحيص جانب العبادة فيهم، على الرغم من علو مكانة العبادة والعابدين عند «عمر»، إنما يُطل على الشخصية كلها، لأن العبادة أيضًا في مفهومها السديد عند «عمر»، تعني استواء الشخصية الإنسانية واكتمالها..

من أجل هذا، كان يشكو كثيرًا من سذاجة التقيِّ، ومقدرة غير التقي..

وما كان يرى السذاجة والغفلة من خصائص العبادة والتقوى. بل التقوى عنده قوة وطهر. وسَعة حيلة، وتفوُّق..

والحياة لديه ليست غفلة صالحة. بل هي تجربة ناجحة، ومِراس أمين.

تحدث الناس عنده يومًا عن رجل وذكروه بخير فقالوا: إنه لا يعرف الشر أبدًا..

فقال «عمر»: ذاك أجدر أن يقع فيه..

ليس معنى هذا طبعًا أن ارتكاب الشر ضرورى لمعرفته، إنما معناه أن يكون الإنسان بصيرًا بالشرور حتى لا تغزوه متنكرة فى ثياب الخير..

ويدرك «عمر» كذلك بفطنته المتألقة أن الفضيلة ليست انسحابًا من الحياة حَذرَ الفتنة، بل هى مجابهة الحياة ومُغالبة الفتنة.

وفى هذا يُسأل: أيهما أزكى وأفضل - رجل لا يَأثم لأن نفسه لا تشتهى الإثم، أم رجل تشتهى نفسه الإثم ولا يأثم..

فيجب «عمر» الحصيف الألمعى: «الذين يشتهون المعصية، ولا يعملون بها، أولئك الذين امتحنَ الله قلوبهم للتقوى، لهم مغفرة، وأجرٌ عظيم»!!

* * *

وتتراحب أبْعاد هذا الذكاء وهذا الفقه، حين يواجهان مشاكل الحياة والناس.

تُعـرض عليه قضية يُفتِى فيها، وبعد حين، تعرض عليه قضية مماثلـة لتلك، فيفتى فيها فتوى مغايرة.. فإذا سـئل عن سـر هذا التفاوت قال: ذاك على ما قضينا، وهذا على ما نقضى..

إن ظروف القضيتين مختلفة، وإن تماثَلت الوقائع.

وعمر الفقيـه العبقرى، لا يحمل داخل عقلـه فتاوى كالقوالب الجامـدة، إنما يحمـل فهمًا يتحرك فى كل الجهـات، ويدرك ما لِتَباين الظروف وتغاير الأسـباب من تأثير فى الحادثة، وتأثير فى الحكم..

ولا شىء يفوق ذكاء «عمر»، سوى جرأة هذا الذكاء!!

فنراه وهو الذى كان يتحرَّى التزام النَّص، ومتابعة الرسول ﷺ. يعلـن إنهاء حكم شـرعى، مات الرسـول وهو نافـذ قائم، ومات أبو بكـر وهو نافذ قائم، ولا يـزال منطوق هذا الحكم آية تُتلى فى كتاب الله!!

هـذا الحكم، هو تخصيـص جزء مـن ضريبة الـزكاة للمؤلَّفة قلوبهم، والمؤلَّفة قلوبهم جماعة دخلوا الإسـلام باقتناع ضعيف، أو بغير اقتناع، ففرض القرآن لهم فى بيت المال حظًا يأخذونه من الزكاة. تألُّفًا لهم، حتى لا ينصرفوا عن الدين قبل أن يذوقوا حلاوة الإيمان فيقبلوا عليه راغبين موقنين..

قلّب «عمر» وجوه الرأى فى هذا الشأن ثم قال:

«لقد كان رسول الله يعطيهم، والإسلام يومئذ ضعيف.. أمّا اليوم فقد أعزَّ الله دينه وأعلى كلمته، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، ولن يتسع هذا الدين إلا لمن يدخله راغبًا مؤمنًا».

إن هذا الموقف وحده يرتفع إلى أعلى مستويات الذكاء الإنسانى ليس لما يتضمن من حسن التعليل، بل لما يتضمن من شجاعة التفكير، فكثيرون يستطيعون أن يدركوا ما أدرك «عمر» من حكمة التشريع فى مثل هذه الواقعة، لكن «عمر» وحده هو الذى يستطيع ذكاؤه الحاسم أن يطوِّر هذا التشريع، لا سيما إذا كان مقررًا بآية قرآنية لم تُنسخ. وعمل للرسول لم يُنقض..

الحق أن أعمق رُؤى البصيرة، وأعمق أسرار الشريعة، قد التقتْ لقاء سعيدًا فى وَعْى هذا الرجل الراشد الأمين!

ولقد أشاد الرسول بهذه النعمة التى أفاءها الله على «عمر». فيروِى البخارى ومسلم ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال:

- «بينما أنا نائم، إذ رأيت قدحًا أُتيتُ به فيه لبن، فشربت منه حتى إنى لأرى الرَّىَّ يجرى فى أظفارى، ثم أعطيتْ فضلى عمر بن الخطاب.. قال أصحاب الرسول، فماذا أوَّلتْه يا رسول الله؟ قال: العلم».

* * *

يُجاء إليه بمسلم ارتكب ما يوجب الحدّ، ويشهد ثلاثةٌ شهادة تدينه، ولم يبق إلا شهادة الرابع، ثم يصير الحد عقابًا محتومًا..

ويرسل «عمر» يستدعى الشاهد.. ولا يكاد يراه مقبلاً حتى تأخذه رهبة.. وحين تقترب خطاه، ينظر إليه أمير المؤمنين ويقول: «أرى رجلا أرجو ألاَّ يفضح الله به واحدًا من المسلمين»..

ويقدم الشاهد، ويقول. لم أر شيئًا يوجب الحد..

ويتنفس «عمر» الصّعَداء!!

ويأتيه رجل يسعى ذات يوم ظانًّا أنه يحمل إليه بشرى. فيقول يا أمير المؤمنين، رأيت فلانًا وفلانة يتعانقان وراء النخيل، فيمسك «عمر» بتلابيبه، ويعلوه بمخفقته، ويقول له بعد أن يُوسعه ضربًا: «هلاَّ سترت عليه، ورجوتَ له التوبة؛ فإن رسول الله قال: من ستر على أخيه ستره الله فى الدنيا والآخرة»!!

هذا رجل معه من الورع ما يستهجن به الخطأ الأخلاقى، ولكن معه من الفطنة ما يُقدّر به ظروف هذا الخطأ، ومعه من الفقه ما يؤدى به حق الورع وحق الفطنة معًا!!

وإنه ليوصى الناس بهذا الفقه العظيم فيقول:

«هكذا فاصنعوا.. إذا رأيتم أخًا لكم زلَّ زلَّة فسدِّدوه ووفِّقوه، وادعوا الله أن يتوب عليه، ولا تكونوا عونًا عليه للشيطان»..

إن أميـر المؤمنين شـديد الوطأة، شـديد البـأس، ولكن الفهم السديد يضيء كل مواقفه، وهو يقضى بذكائه لا بعواطفه.. فصحيح أنه ينفر من الإثم، ولكنه يُمحِّص ظروف اجتراحه تمحيص خبير، ويضع القاعدة الذهبية التى تقول:

«لأنْ أعطـل الحـدود فى الشُّـبُهات، خيـر مـن أن أقيمَها فى الشبهات»!

يأتيه يومًا رجل يستفتيه قائلا:

– إن ابنتى كانت قد أصابت حدًّا من حدود الله، وأخذت الشفرة لتذبح نفسها، فأدركناها وقد قطعت بعض أوداجها فداويناها حتى برئـت، ثم تابت بعدُ توبة حسـنة. وهى اليـوم تُخطب إلى قوم، أفأخبرهم بالذى كان؟

فيجيبه عمر ذو الورع الذكى، والذكاء الورع..

– «أتَعمَد إلى ما ستره الله فتبديه؟ والله لئن أخبرت بها أحدًا من الناس لأجعلنك نكالا لأهل الأمصار، اذهب وأنكحْها نكاح العفيفة المسلمة»!!

* * *

وأميـر المؤمنين لا يكـوِّن أحكامًا جزئية مُبتسـرة. بل تجىء أحكامه دائمًا شـاملة مسـتوعبة. ولا يصرف بصيرته عن الواقع، بل يركزها عليه، ويحيط به، ويجعله من مصادر تفكيره الرشيد..

– فى إحدى الليالى، وقد خرج عاسًّا فى المدينة، ينفض الليل عن الكروب المخبوءة، سمع سيدة تشكو بَثَّها وحُزنها وتقول:

تطاوَلَ هذا الليل، وازورَّ جانبه ... وليس إلى جنبى حليلٌ أُلاعِبه
فوالله لولا الله لا رب غيره ... لزلزل من هذا السرير جوانبه
مخافة ربى، والحياء يصدّنى ... وأُكرم بَعلى أن تُنال ركائبه

ثم قالت: أهكذا يهون على «عمر» وحشتنا، وغيبة رجلنا عنا؟

ويتبين «عمر» أن زوجها مجند فى أحد جيوشه..

وعند الصباح يذهب إلى ابنته حفصة ويسألها:

– يا حفصة.. كم تصبر المرأة عن زوجها؟!

فتجيبه: تصبر شهرًا، وشهرين، وثلاثة، وينفد مع الشهر الرابع صبرها.

فيسنُّ من فوره قانونًا، بألا يغيب فى الجهاد جندى متزوج أكثر من أربعة أشهر.. ويرسل إلى زوج السيدة يستدعيه من فوره!!

– ويسمع شيخًا كبيرًا يبكى فى شعر جَزْل ولَده الوحيد الذى طال غيابه عنه.. ويسأل «عمر» فيعلم أنه هو الآخر فى أحد جيوش المسلمين، فيستدعيه فورًا ثم يسن قانونًا ألا يخرج إلى الجهاد من له أبوان كبيران إلا بعد إذنهما!!

ذكاء يعمل على الطبيعة، ويستمد من واقع الناس والحياة مادة تفكيره..

- ولقد درج العرف والقانون على اعتبار الاعتراف سيد الأدلة. وهذا حق، ولكن أمير المؤمنين يقرر بفطنته أنه ليس كذلك دائمًا. ولابد لكى يؤخذ الاعتراف كدليل، ألا يُعْزلَ عن الظروف التى تكتنفه وتحيط به، فلربما يجيء نتيجة خوف أو إكراه، وعندئذ يفقد قيمته.

يقول عمر:

- «ليس الرجل بمأمون على نفسه إن أَجَعْتَه أو أخَفْته، أو حَبسْته، أن يُقر على نفسه»!!

- وهو يأمر قواد جيوشه ألا يُنزلوا بجندى عقابًا حتى «يَطلُعوا من الدَّرْب قافلين» !!

إذا ارتكب جندى خطأ ما، فَلتحقق الواقعة، ولتحدد المسئولية، ولكنّ توقيع الجزاء والعقوبة، يظل مُرجأً حتى يُغادر الجندى بلاد الأعداء، ويعود إلى وطنه..

ويعلل أمير المؤمنين قراره هذا، بالخوف من أن يلحق الجندى بالأعداء ويأوى إلى صفوفهم إذا أنزل به العقاب هناك!!

إن ذكاءه التشريعى يتجلى فى هذه الوقائع اليسيرة التى ذكرناها تجليًا يكشف عن روح الفهم النافذ والاستعداد العظيم عند ذلك الرجل الملهم الرشيد.

- وإنه ليجاء إليه يومًا بغلمان صغار السن سرقوا ناقة رجل من مُزَينة..؟ فلا يكاد يراهم صفر الوجوه، ضامرى الأجسام حتى يسأل: من سيِّد هؤلاء؟

قالوا: حاطب بن أبى بلتعة..

قال: إلىَّ به..

فلما جاء حاطب، سأله: أنت سيد هؤلاء؟

قال: نعم يا أمير المؤمنين.

قال عمر: لقد كدت أنزل بهم العقاب، لولا ما أعلمه من أنكم تدئبونهم، وتجيعونهم - لقد جاعوا فسرقوا، ولن ينزل العقاب إلا بك!!

ثم سأل صاحب الناقة:

- يا مُزَنى، كم تساوى ناقتك؟؟

قال: أربعمائة..

قال عمر لحاطب: اذهب فأعطه ثمانمائة..

ثم قال للغلمان: اذهبوا، ولا تعودوا لمثلها!!

* * *

وحين نتبع أفكار «عمر» فى كلماته التى يصوغها فى أحسن تقويم، نرى الجزالة، والوضوح، والمعانى الكبيرة، والأهداف النبيلة. تلتقى لقاء سعيدًا فى كل كلمة تنفرج عنها شفتاه..

حين ولى الخلافة وقف يقول لقومه:

- «لن يغير الذى وَلِيتُ من خلافتكم شيئًا من خُلقى، إنما العظمة لله وحده، وليس للعباد منها شىء».

ويحدثهم عن المال فيقول:

- «ألا إنــى ما وجدت صــلاح هذا المال إلا بثلاث: أن يؤخَذ من حق، ويعطــى فى حق، ويُمنع من باطــل... ألا وإنما أنا فى مالكم هــذا كوالى اليتيم: إن اســتغنيتُ اســتعففت.. وإن افتقرتُ أكلت بالمعروف».

ويقول فى كلمات وضاء عِذاب:

«من أراد أن يســألَ عن القــرآن، فليأت أُبَىَّ بن كعب.. ومن أراد أن يسأل عن الفرائض. فليأت زيد بن ثابت.. ومن أراد أن يسأل عن الفقه، فليأت معاذ بن جبل.. ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتنى؛ فإن الله جعلنى له خازنًا وقاسمًا»..

«إنى بادئ بأزواج رســول الله فمعطيهن، ثم المهاجرين الأولين الذيــن أخرجوا من ديارهم وأموالهم، ثم الأنصار الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم، ثم من أســرع إلى الهجرة أســرع إليه العطاء، ومن أبطأ عــن الهجرة أبطأ عنه العطاء، فــلا يلوَمن رجل إلا مُناخَ راحلته»!!

ويقول فى توزيع الثروة:

- «إنى حريص على ألا أدَع حاجة إلا سَــددتها ما اتســع بعضنا لبعض، فإذا عجزنا تآسينا فى عيشنا حتى نستوى فى الكفاف»!!

* * *

وحين نستعرض كتبه لقواده وولاتِه نرى كيف كان ذكاؤه يبلغ غاية الرُّشد فى كل شأن من الشئون..

يكتب لأبى موسى الأشعرى موضحًا له منهج القضاء الذى ينبغى أن ينتهجه فيقول:

«من عبد الله أمير المؤمنين، إلى عبد الله بن قيس.. سلام عليك..

«أما بعد: فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة، فافهم إذا أُدْلِى إليك، وأنفذ إذا تبيَّن لك؛ فإنه لا ينفع حق لا نفاذ له..

«آسِ بين الناس فى مجلسك ووجهك؛ حتى لا يطمع شريف فى حَيْفك، ولا ييأس ضعيف من عَدلك..

«البينة على من ادَّعى، واليمين على من أنكر..

«والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحًا أحلَّ حرامًا أو حرَّم حلالا..

«ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس، فراجعتَ فيه نفسك وهُديت لرشدك أن ترجع إلى الحق: فإن الحق قديم لا يبطله شىء. ومراجعة الحق خير لك من التمادى فى الباطل..

«الفهمَ، الفهمَ فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا فى سنة، واعرف الأشباه والأمثال، ثم قِس الأمور عند ذلك، واعمَد إلى أحبها إلى الله، وأشبهها بالحق فيما ترى... واجعل لمن ادَّعى حقًّا غائبًا أو بينة، أمدًا ينتهى إليه، فإن أحضر بينته أخذت له

بحقه وإلا استحللت عليه القضاء؛ فإن ذلك أنفَى للشك، وأجْلَى للعمى، وأبلغَ فى العذر..

«والمسلمون عدول فى الشهادة بعضهم على بعض، إلا مجلودًا فى حدّ، أو مجرّبًا عليه شهادة زور، أو ظَنينًا فى ولاء أو قرابة؛ فإن الله قد تولّى منكم السرائر، ودَرأ عنكم الشبهات»..

«وإياك والقلق، والضجر، والتأذّى بالناس والتنكرِ للخصوم فى مواطن الحق التى يوجب الله بها الأجر، ويُحسن الذُّخر فإنه من يُخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى، يَكْفِه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزيّن للناس فيما يعلم الله خلافه منه، شانَه الله وهَتك ستره وأبدى فعله، فما ظنك بثواب عند الله فى عاجل رزقه، وخزائن رحمته؟ والسلام»!!

* * *

«ويدخل عليه وفد من المجاهدين كانوا يفتحون تكريت وجلولاء، فيرى جسومهم ضامرة ووجوههم شاحبة، فيسألهم عن سبب ضعفهم فيجيبونه بأنها وخُومة البلاد ورطوبتها».

فيكتب لسعد يأمره أن يحسن اختيار مكان يلائم الناس، ويرسم له الطريق فيقول:

«ابعث سلمان رائدًا، وحذيفة؛ فليرتادا منزلا ليس بينى وبينكم فيه بحر ولا جِسر، وادع أبا الهياج بن مالك، وأمره أن يجعلها مَناهج - يعنى شارع - عرض كل منهما أربعون ذراعًا.. وأخرى

عــرض كل منها ثلاثــون ذراعًا.. وأخرى عرض كل منها عِشــرون ذراعًا، لا تضيق عن ذلك شــيئًا. وأمره أن يجعل فيها أَزِقَّة، الزقاق سبعة أذرع، لا يضيق عنها شيئًا»!

* * *

ويكتب لسعد أيضًا ببعض توجيهاته العسكرية فيقول:

«ترفَّق بالمسلمين فى مســيرهم، ولا تجشمهم مسيرًا يتعبهم، ولا تقصر بهم عن منزل رفق، حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهــم.. وأقم بمن معك فى كل جمعــة يومًا وليلة حتى تكون لهم راحة يُجِمَّون فيها أنفسهم ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم..

ثم يقول:

«وإذا وطئت أدنى أرض العدو فأذْكِ العيون بينك وبينهم، حتى لا يخفــى عليك أمرهم، واختر لهذا من تطمئن إلى نصحه وصدقه؛ فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صَدق فى بعضه، والغاشّ عين عليك وليس عينًا لك..

«وإذا دَنَوت من أرض العدو، فأكثر الطلائع، وبثَّ الســرايا، أما الســرايا فتقطع أمدادهم ومرافقهم، وأما الطلائع، فتبلو أخبارهم، وانتق للطلائع أهل الرأى والبأس من أصحابك، وتخير لهم ســوابق الخيــل؛ فإن لَقُوا عدوًّا كان أول مــا تلقاهم القوة من رأيك، واجعل أمر الســرايا إلى أهل الجهاد والصبر على الجلاد، ولا تخصَّ أحدًا بهــوى فيضيع من رأيك وأمرك أكثر ممــا تحابى به أهل خاصتك،

ولا تبعث طليعة ولا سَـرِيّة فى وجــه تتخوف فيه ضيعة ونكاية، فإذا عاينت العدو، فاضمُم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك»!!.

* * *

ويكتب إليه أيضًا:

– «بلغنــى أنه فشــا لك ولأهل بيتك هيئة فى لباســك ومطعمك ومركبك ليس للمســلمين مثلها، فإيــاك يا عبد الله أن تكون بمنزلة البهيمة التى مرت بواد خصيب فلم يكن لها هم إلا السَّـمن، وإنما حَتْفُها فى الســمن..! واعلم أن للعامل مردًّا إلى الله، فإذا زاغ زاغت رعيته، وإن أشقى الناس من شقيت به رعيته!!».

فى هذه الرسائل أدلى «عمر» برأيه فى مشاكل شتى، فى القضاء، وفى العمارة؛ وفى الجهاد؛ وفى أمانة الحكم..

وفيها، وبين سطورها تتألق بديهته، ونبوغه..

* * *

وحتــى حيــن كان يعبر عن أفــكاره فى تبسُّــط ودعابة، كانت الحكمة الذكية تملؤ الكلمات والحروف..

يمر يومًا بدار جديدة فى أطراف المدينة، فيسأل: دارُ مَن هذه؟

فيقولون: دار فلان، وفلان هذا واحد من ولاة عمر..

فيقول: أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها!!

ويبصر يومًا نائحة تستجيش أحزان الناس وتمسح دموعها الكواذب فيعلوها بمخفقته، ويطردها ويقول: «إنها لا تبكى بشجونكم، إنما تبكى بدراهمكم!!».

ويسأل أحد أولاد «هرم بن سنان»الذى خلده بشعره، «زهير بن أبى سلمى»، فيقول له أنشدنى بعض مَدح زُهيرٍ أباك. فينشده..

فيقول عمر: إنْ كان لَيحسن فيكم القول..

فيجيبه الرجل: ونحن والله. إنْ كُنَّا لَنحسن له العطاء...

فيقول عمر: قد ذهب ما أعطيتموه.. وبقى ما أعطاكم!!.

ذكاء ثاقب – يعبر عن نفسه بكلمات ثاقبة!!

***

وبعد، فالذكاء البشرى يقترن غالبًا بالطموح الشديد، والسعى الدائب وراء المزيد من أمجاد الدنيا والعلوِّ فيها..

وهنا نلتقى خصائص ذكاء ابن الخطاب..

لقد كان ذكاء رُهبانيًا، لا يعمل فى خدمة صاحبه، وإنما يعمل لله، ومع الله، فى سبيل الحق والخير والرحمة!!.

أجل، كان ذكاء رجل أوَّاب.. مِن الله مأتاه.. وإلى الله مردّه.. وفى سبيل الله نشاطه، وتَوقُّده، ورُؤاه!!.

□□□